بسم الله الرحمن الرحيم

تنصير النحو العربى

بقلم دكتور / عبده زايد

منذ حوالى قرنين من الزمان كان يعيش في الجزائر فقيه إباضى يدعى : عبدالعزيز بن إبراهيم المصعبى الثمينى ضياء الدين (توفى ١٢٢٣ هـ) ، وكانت له مقولة مأثورة بقيت بعده إلى أن وصلت إلينا وهى:" العربية لا تتنصر "[١] ، ولست أدرى على وجه التحديد ما الظروف التى حدت بالثمينى إلى أن يقول هذه المقولة ، فإذا كان النفى فربما على الإثبات كما هو معلوم فإن معنى مقولته أنه كان في هذا التاريخ محاولات لتنصير اللغه ، أو دعوة إلى تنصيرها على أقل تقدير ، فمن المستبعد أن يقول الثمينى ما قال من فراغ .

ومن المعروف أن اللغة العربية في تاريخها الطويل إرتبطت بالقران الكريم إرتباطا لا إنفكاك له ، فمنه أن شرفها الله تعالى بالقران الكريم إكتسبت حياة جديدة وروحا جديدا منحها القوة والحيوية والخلود ، وبهذا تمكنت من قهر لغات شعوب عديدة كان لها تراث طويل عميق من العلوم والمعارف . ولولا القران الكريم لما كان لهذه اللغة حياة ولا بقاء ، ولأندثرت كما اندثرت كثير من اللغات .

وعلوم اللغة العربية إنطلقت من قاعدة الإسلام ، فكان القران الكريم قطب الرحى الذى تدور حوله علوم اللغة العربية بأصواتها ومخارج حروفها ومعجمها ودلالة ألفاظها وصرفها ونحوها وبلاغتها ، وإذا كانت هناك استعانة بالشعر الجاهلى فلتوثيق عربية القرآن .

ومن هنا عدّ العلماء علوم اللغة ضمن العلوم الإسلامية ، وإن كانت في الأصل علوم أداة ووسائل ؛ فالقرآن الكريم يستحيل فهمه والوقوف على

---

(١) انظر : من قضايا المعجم العربى للدكتور الحمزاوى ص ١٥٤ دار العربى الإسلامى .

أسرار إعجازه بدون فهم أسرار هذه اللغة ، والأحكام الشرعية والعقدية لا يمكن أن تستنبط إستنباطاً صحيحاً بدون سير أغوارها .

ولأن هذا هو وضع اللغة العربية فإننا لم نجد أحدا من غير المسلمين يقوم على خدمتها ، فأنا لا أعرف أحدا من النصارى أو اليهود أو المجوس أو غيرهم سخر حياته لخدمة هذه اللغة ؛ لأنه إن فعل ذلك فسيتعامل مع القران حتما ، وسيجد نفسه من حيث يدرى أو لا يدرى خادما للقرآن ، وما أظن أن أحدا رفض الدخول في الإسلام وتمسك بدينه الذى هو عليه يمكن أن يقبل هذا الوضع .

وهكذا استقر في تاريخ علوم اللغة العربية أن المسلمين من العرب الأقماع أو من المستعربين هم الذين حملوا لواء علوم العربية أصواتا ومعاجم وأصولا ونحوا وصرفا وبلاغة : فهم الباحثون والدارسون والمنقبون والمؤلفون ، وهم الذين يقومون على تدريسها وتعليمها ، ومازال لهذا العرف بقية ؛ فمدى علمى أن كلية دار العلوم في مصر لا يدخلها إلا المسلمون ، وأن أقسام اللغة العربية في جامعات مصر تكاد تقتصر على المسلمين فما أندر من يدخلها من النصارى .

****

لكن حينما بدأ المستشرقون دراسة هذه اللغة ليتمكنوا من مفتاح ثقافة هذه الأمة تخلخلت القاعدة ؛ فأقسام اللغة العربية التى أفتتحت في جامعات الغرب المختلفة قام عليها غير المسلمين ؛ بل إن أقسام اللغة العربية في الجامعات المدنية العربية كالجامعة المصرية (جامعة القاهرة الآن)وهى أقدم جامعة مدنية عربية تولى التدريس فيها مستشرقون غير مسلمين ، فضلا عن الجامعات الأجنبية التى افتتحت في الوطن العربى .ومن الطبيعى ألا يتعامل المستشرقون مع هذه اللغة كما يتعامل معها المسلمون ، إنهم يتعاملون معها بإعتبارها أداة تعبير فقط ، أما أن تكون لها خصوصية معينة لإرتباطها بالقرآن الكريم فلا ، وربما كانت هناك محاولات في ذلك التاريخ المبكر لمعالجة قواعد هذه اللغة وضوابطها من خلال ثقافة المستشرقين : وهى ثقافة نصرانية في جانب كبير منها ، وما أكثر من دخل ميدان الإستشراق من رجال الدين

النصارى واليهود ، ومنهم من كان يقوم على تدريس العربية في الجامعات الغربية أو في المنطقة العربية .

فهل كانت هناك محاولة لإخفاء الصيغة النصرانية على اللغة العربية ؟ من المحتمل ، وربما كان هذا هو ما دفع الثمينى في ذلك الوقت إلى أن يقول مقولته السابقة ، ففى ذلك الوقت لم يكن الإستعمار قد اجتاح الوطن العربى ، ولم يكن غزو فرنسا لمصر (١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م) في حياة الثمينى مقرونا فيما أعلم بتنفير العربية .

****

لكن تنصير العربية بعد حياة الثمينى قد قطع شوطا في المدارس التبشيرية التى انتشرت في البلاد العربية ، وخصوصا تلك التى كان يتولى تدريس اللغة العربية فيها غير المسلمين ؛ فلم تكن هناك رقابة على مناهج هذه المدارس فيما أعلم ، ومشكلتنا أننا نجهل مناهج هذه المدارس ومقرراتها وغاياتها أهدافها ودورها في مرحلة التحول الثقافى والحضارى في العصر الحديث .

وحتى تأخذ فكرة موجزة على محاولة تنصير العربية ناقى الضوء على كتاب تعليمى في اللغة العربية ، وضع له صاحبه عنوانا هو :

"كتاب في بحث المطالب في علم العربية "

أما مؤلفه فهو " قطب دهره ، وواحد عصره ، الحبر البحر العلامة ، والإمام الفاضل الفهامة السيد جرمانوس فرحات مطران الأمة المارونية في مدينة حاب المحمية ، تغمده الله برضوانه ، وسقى ترابه غفران " هكذا جاء في صفحة العنوان ، وهذه العبارات إسلامية صرفة ،وما أكثر ما كانت تكتب هى وأمثالها على صفحات عناوين الكتب خصوصا في العصور المتأخرة ، أما الأدعية فواضح أنها إسلامية صرفة .

وللكتاب مصحح وصاحب حواشى هو المعلم سعيد الخدرى الشرتونى اللبنانى ، وقد ذيل اسمه بهذا الدعاء " غفر الله ذنوبه وستر عيوبه " .

وهذا الإصرار على وضع صبغ الغلاف بصيغة إسلامية مع أن جوهره أبعد ما يكون عن الإسلام هدفه التقرب إلى القراء حتى يأنسوا إلى الكتاب ولا ينفروا منه خصوصا أبناء المسلمين في المدارس التبشيرية .

فإذا ما دخلت إلى صفحات الكتاب هالك ما فيه ، لقد رجعت إلى القسم الخاص بعلم النحو من الكتاب ، ومن المعروف أن مصادر النحو العربى لابد أن تكون إسلامية .

فليس لغير المسلمين اشتغال بالنحو ولا تأليف فيه ، لكن المؤلف حاول أن ينتزع النحو من القرآن الكريم انتزاعا قويا ، ويزرعه في أرض الكتاب المقدس ، وأن يجرده من أى أثر للثقافة الإسلامية ويصبغه بالصبغة المسيحية صبغا كاملا . ومحاولة كهذه سوف تصطدم بعقبات وعقبات ، ولكن الرجل كان مصرا إصرارا غريبا على بلوغ هدفه . إن شواهد الكتاب أخذت من الكتاب المقدس ، وأسماء الأعلام أصبحت مسيحية والأمثلة المصنوعة للتوضيح مأخوذة من العقيدة المسيحية والتراث المسيحى .

ومن المعروف أن الكتاب المقدس ليس كتابا عربيا ، وليس في ترجماته العربية ترجمة واحدة ترقى إلى أن تكون نصا أدبيا رفيعا حتى يمكن الإستشهاد به .

ومن المعروف أيضا أن شواهد النحو كلها مستمدة من مصادر محددة في إطار زماني ومكانى محكم ، ومن المعروف كذلك أن بعض قواعد العربية لا نجد لها شاهدا ألا في القرآن الكريم .

ولكن الرجل تجاوز ذلك كله أو تجاهله ، ومضى في خطته التى اختطها لنفسه في تنصير النحو العربى ، ومع كل هذا لم يستطع أن يستغنى الرجل عن التعامل مع القرآن الكريم لأن الكتاب المقدس لا يسعفه بكل ما يريد في علم هو بطبيعته قائم على هذا الكتاب المعجز .

ولكن كيف تعامل مع القرآن الكريم ؟ وكيف تعامل مع الكتاب المقدس ؟

إن أى نص من الكتاب المقدس كان يصدره بقوله : قال تعالى ، ثم يذكر النص ، تماما كما كان يفعل علماء النحو المسلمون حينما يستشهدون بآيات من القرآن الكريم في كتبهم .

أما حينما يضطر إلى الإستشهاد بآية قرآنية فلا يصدره بهذاه العبارة ، وإنماء يصدره بكلمة " نحو ....." ثم يذكر الآية ، والمؤلف قليلا ما يلجأ إلى آيات القرآن الكريم ، أما المصحح صاحب الحواشى فكثيرا ما يفعل ذلك ، ولكن المنهج عندهما واحد ، وهو أن تبقى الآية القرآنية مجرد كلام ومثال على القاعدة المذكورة ، أما أن يكون قرآنا أخ من كلام الله تعالى فلا ، ومن أجل هذا يلجأن [المؤلف والمصحح] إلى بتر النص القرآنى ، كما في الإستشهاد ب "كمثل الحمار يحمل أسفارا " [ص١٤١] ، ولا يمكن فهم هذه الآية إلا بذكر صدورها وهو قوله تعالى : (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ، وهو معروف طبقا لماذا لم يذكر صدر الآية .

أو يلجأ إلى التحريف في النص ؛ لأنه ليس له حرمه عندهما ولا قداسة ، كما في الإستشهاد ب(أعدلوا فهو أقرب للتقوى) [ص١٤١]وصحة الآية الكريمة : (اعدلوا هو أقرب للتقوى) .

وليس الأمر كذلك في نصوص الكتاب المقدس ، أنظر إلى هذه النصوص المصورة كلها ب" قال تعالى ":

- "وحينئذ تنظرون علامة ايه الإنسان " في تنوين العوض عن جملة . ص١٣٨ .
- " فعجب كل منكم " في تنوين العوض عن كلمة . ص١٧٨
- " ومضى إلى اخوتى وقولى لهم " من علامات الفعل لحوقه ياء المؤنثة به
- ص١٧٩
- " ومن يطلب يجد " " مَنْ " للعاقل ص١٤٨.
- " اعطوا ما لقيصر لقيصر " " ما "لغير العاقل ص١٤٨ .

- " لكيلا يهلك من يؤمن به " في الموصول الحرفي "كي " ص١٥٠ .
- " إننا ننطق بما نعلم " في حذف عائد الصلة إذا كان مفعولا ص١٥٢ .

والنصوص كثيرة نكتفى بهذا القدر منها .

وحينما يقرأ التلميذ الصغير هذه النصوص المصدرة ب " قال تعالى " في سنوات دراسته الأولى فإنه سينظر إليها على أنها نصوص مقدسة ، وستصبح جزءامن نسيج ثقافته مسلما كان أو مسيحيا ، وحينما تقدم آيات القرآن القليلة على أنها مجرد أمثلة فإنها سننتزع منها قداستها التى تستحقها .

****

فإذا جئت إلى الأمثلة وجدت الثقافة النصرانية تظللها من كل جانب ، وتصبغها بصيغتها ، انظر إلى هذه الأمثلة :-

- المفرد مثل : بطرس ، المركب مثل غلام بطرس ص١٣٥ .
- الجملة مثل : قام لعازر ص١٣٥ ، قام بطرس ، آمن بولس ص١٣٦ ، بطرس قائم ص١٣٧ .
- علم شخصى مثل : يوع ومريم ويوسف ص١٤٣ .
- الاسم واللقب مثل : بطرس مسرة ، بطرس زين العابدين ص١٤٥ .
- إذا اشتهر اللقب جاز تقديمه على الاسم بكثرة نحو : المسيح يسوع افتدانا ص١٤٥ .
- أل العهدية تقول البشير : وعرفاه عند كسر الخبز ، آتى الخبز المعهود في العشاء السرى ص١٥٢ .
- جمع المذكر السالم مثل : رأيت البطرسين ص١٦٦ .

- جمع المؤنث السالم مثل : مررت بالهندات المسيحيات ص١٦٦ ،ولعلك تلاحظ هنا أن مغزى الوصف ، فهو زائد في المثال لغرض واضح .
- دونك بطرس ، أى خذه ، وعليك بولس ، أى الزمن ص١٧٥ .
- عجبت من موت يسوع أى من أن مات يسوع ص ١٧٦ .
- أحيا المسيح ألعازر ص ١٧٧ .
- شغانى يسوع ص ١٧٧.
- إن زارك بطرس فأكرمه ص ١٧٨ .
- بحذف الفاعل جوازا في جواب الإستفهام كقولك : يسوع ، في جواب : من فرى الناس ؟ ص١٧٨ .
- يسوع ذلك المخلص ، بطرس نعم الرسول ص١٨٥ .
- لبطرس رسول ، ما بطرس إلا رسول ، إنما بطرس رئيس الرؤساء ص ١٨٧ .

****

أما حين ينقل عن كتب النحاة ـ وكلهم مسلمون والقرآن الكريم أكبر مصدر للشواهد عندهم ـ فإنه يغير فيها ويبدل ويحذف ويبتر حتى لا تتعارض نقوله مع هدف الكتاب .

فهو مثلا يرجع إلى الرضى حينما يتحدث عن اجتماع الاسم واللقب والأول مفرد والثانى مركب ، والمختار من جواز الإضافة كما قال بعضهم نحو : يطرس زين العابدين ، وهنا يقول كما صرح به الرضى ، والرضى لا يذكر هذا المثال ولا ما يشبهه من أمثلة النصارى ، ولم يفعل هذا أحد من أئمة العربية فيما أعلم ، ولكن الكلام هنا يسامه بشكل طبيعى ، وكأن الرضى قال به .

وينقل كذلك عن ابن هشام في المغنى عند كلامه عن " لو " فيقول : " قال في المغنى : وأكثر وقوع هذه بعد ود ويود ، نحو يود الإنسان لو يعمر ، وقد تقع بدونها نحو : ما كان ضرك لو مننت " ص ١٥١ .

والذى في المغنى لإبن هشام في إحدى صور " لو " وهى التى تكون حرفا مصدريا بمعنى " أن " إلا أنها لا تنصب " وأكثر وقوع هذه بعد ود ويود نحو : (ودوا لو تدهن) ، (يود أحدهم لو يعمر) ، ومن وقوعها بدونهما قول قتيبه :

ما كان ضرك لو مننت وربما من الفتى وهو المغيظ المحنق[1]

وأنت ترى أنه غير الآية إلى مثال يحقق الغرض ، وبتر البيت بترا ، والخطاب في البيت للنبى صلى الله عليه وسلم .

وهو بهذا يتجاوز كل عقبة يمكن أن تحول بينه وبين تنصير النحو ، حتى لا يبقى فيه أثر للقرآن الكريم ولا للثقافة الإسلامية .

فهل يمكن أن يكون مثل هذا الكتاب صورة لرغبة فردية أو تصرف فردى ؟

لا أعتقد ذلك ، فانتزاع العربية لغة ودلالة وصرفا ونحوا وبلاغة من القرآن الكريم كان هدفا للمستشرقين والمبشرين ، واقتحام غير المسلمين لحصن العربية بالتأليف والتدريس في العصر الحديث كان يرمى فيما يرمى إلى تحقيق هذه الغاية .

أن الوقت الذى طبع فيه هذا الكتاب في المطبعة اليومية سنة ١٩٢٩ م بعد وفاة المؤلف

ـ وأظن أنه كان مطبوعا قبل ذلك ـ في هذا الوقت كان المستشرقين اليهود يدرسون اللغة العربية في مادة فقه اللغات السامية من أمثال : إسرائيل ولغنُون (أبو ذؤيب) وجوزيف شاخت ، وبول كراوس ،

---

(١) مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام الأنصارى ج١ ص٢٩٣ ، ٢٩٤ تحقيق د/ مازن المبارك ومحمد على حمد الله .
مراجع / سعيد الأفغانى ـ دار الفكر الحديث ـ لبنان

وكان هذا الأخير يقرأ لطلاب الدراسات العليا في قسم اللغة العربية بكلية الآداب في الجامعة المصرية (جامعة القاهرة الآن) نصوصا من الكتاب المقدس ويشرحها ويفسرها لهم .[1]

أضف إلى هذا أن الجامعة العبرية التى قامت في فلسطين سنة ١٩٢٥ م قد افتتحت قسما للغة العربية ، ومن الطبيعى أن يتولى التدريس فيها اليهود ، والنتيجة معروفة وهى صبغ العربية بصيغة الكتاب المقدس .

لم يكن الهدف إذن فرديا ولا السعى شخصيا ، وإنما كان هدفا عاما لأعداء الإسلام .

فهل يعلم أبناؤنا شيئاً من هذا التاريخ .

---

(١) موسوعة المستشرقين ــ د/ عبد الرحمن بدوى ط. ثالثة ص ٤٦٦ .
دار العلم للملايين ــ بيروت ١٩٩٣ م .